

القسم الرابع

التوسل الى أعداء الامس

تعالوا وحاربوا معنا فشاءتكم

تُرفع اليوم في بغداد ..

من رسالة صدام إلى رفسنجاني

لم يكن في إستطاعة شخص مثل عزة إبراهيم، الذي يحتل من الناحية الشكلية موقع الرجل الثاني في القيادة العراقية، إن يذهب بأفكاره وآرائه هو إلى إيران قبل ثلاثة أيام من إندلاع الحرب. لقد حمل معه تعليمات مكتوبة، كان الرئيس صدام قد أملاها على سكرتيره ليعطيها إلى عزة قبل ذهابه إلى طهران، وحاول في تلك التعليمات أن يحدد بدقة المفردات التي يتعين على مبعوثه استخدامها في لقاءه مع المسؤولين الإيرانيين. وربما كان الرئيس حريصاً على عدم خروج نائبه عن سياق تعليماته، ولكن هذه الصيغة في تحريك الأشخاص في مثل موقعه قد ضاعفت من شيق المدى الذي سيتحرك فيه المبعوث الذي ذهب يبحث عن حلفاء في طهران.

جاء في تعليمات الرئيس إلى نائبه: (قُلْ للإيرانيين إن شعاراتكم تُرفع الآن في بغداد، وقد جاء (الشیطان الأكبر) إلى حافاتنا، ولذلك نتوقع أن تشاركوا في المعركة لأنها معركتكم، وإذا كان الإيرانيون راغبين فعلاً في إقامة علاقة جيرة طيبة ومشتركة فلماذا يغلغون الحدود في وجه تدفق السلع بيننا؟) .. كما جاء فيها (إذا وجد الإيرانيون أننا في حاجة إليهم .. فليكن الله معهم .. قل لهم الله معكم .. وإننا ننظر إلى الأمر بطريقة تجعل كل واحد منا محتاجاً للآخر .. وإذا استطاعت أمريكا أن تكسرننا فلن يبقى عندئذ نظام وطني أو حزب وطني في المنطقة إلا وسيطحن .. وقل لهم .. لماذا تسحبون أنفسكم وكأنكم من خارج المنطقة ..).

لقد حفظ عزة إبراهيم تلك التعليمات عن ظهر قلب، فليس أمامه من خيار غير أن يفعل ذلك، لكي يعد نفسه عند العودة لنقل ردود الأفعال عن كل ملاحظة حملها معه من بغداد. وتلك هي عادته، فإذا حمل رسالةً من هذا النوع ترى أن العالم يضيق عليه، ولا تعود لديه القدرة على إبداء رأيه في أصغر الأمور وأقلها شأناً .. فهو يدلي بحلمه، عندئذ، ثم يصمت ..



أغلب الظن، أن الإيرانيين أكتشفوا مستوى الوعي ونمطه في ذهن المسؤول العراقي، وعملوا على استخدامه كقناة لتمرير إنطباعات محددة إلى رئيسه، فالمبعوث العراقي قد يكون الأدنى كفاءة من بين كل السياسيين الذي قدموا بمن بغداد، ولذلك سنحت فرصة نادرة للرئيس هاشمي رافسنجاني، فقد دخل عليه (عزة إبراهيم) بمعية (حسن حبيبي) مساعد الرئيس الإيراني، ومعهما أعضاء الوفد العراقي ومترجم إيراني .. وبدأ المسؤول العراقي على الفور في تحديد أسباب زيارته للرئيس الإيراني :

– لا أريد أن أقتطع الكثير من وقتكم، إنني أنقل إليكم تحيات الرئيس صدام حسين وتمنياته، وحرصه على تطوير العلاقات معكم في مواجهة التحدي الإمبريالي الصهيوني.

ثم استطرده :

– أما أنا فيشرفني اللقاء بكم ولا أريد أن ننقل عليكم بموضوعاتنا السياسية التي سنواصل بحثها مع الدكتور حسن حبيبي وقد حققنا نجاحاً كبيراً في مناخ من الثقة والأخوة.

وبادله الرئيس رافسنجاني عبارات المجاملة، وطلب إليه نقل تحياته وتمنياته الشخصية للرئيس صدام حسين، وكاد اللقاء ينتهي بعد عشر دقائق مقسمة على الكلام وترجمته، وهمّ عزة إبراهيم بالمغادرة لكن رافسنجاني فاجأ الحاضرين بقوله :

– أرجو أن تعطونا الفرصة لنجلس وحدثنا ..

وغادر أعضاء الوفد ولم يبق في الغرفة غير ثلاثة أشخاص فقط : رافسنجاني وعزة إبراهيم والمترجم الرئاسي الإيراني الذين ظلوا خلف باب مغلقة لأكثر من ساعة ونصف، وهو الزمن الذي يُفترض أن رافسنجاني أبلغ فيه المبعوث العراقي رسالةً (خاصة) للرئيس العراقي حول الحرب التي كانت مرتقبة يومئذ. ومضت سنة على الأقل، قبل أن تتسرب إليّ معلومات عن رسالة دوتها عزة إبراهيم إلى الرئيس صدام وقال له فيها : (لقد أراد الرئيس رافسنجاني أن يتأكد أننا مستعدون في معركتنا ضد الولايات المتحدة، وطلب معرفة نوع هذه الإستعدادات لأنه يعتقد بأنه من غيران يعرف ذلك لن يستطيع المضي للتحالف معنا دون أن يعرف ما هي خططنا وما هي أهدافنا، وقد قلت له إن أهدافنا معلنة، لكنه أجاب بأنه يريد أن يعرف الأهداف الحقيقية غير المعلنة حتى يستطيع أن يكون ملتزماً معنا).

وأضاف عزة (إن الرئيس رافسنجاني أكد أكثر من مرة خلال اللقاء أن إيران ستؤيدنا إذا تعرضنا للعدوان).

وأستبشر الرئيس صدام بنتائج زيارة نائبه إلى إيران وعدّها ناجحةً ومفيدة ، وأمر بإصدار بيان يعلن عن (غيبته بنتائج زيارة نائبه إلى طهران) .. لكنه كتب على التقرير الذي أعده عزة : (أتمنى أن تكون وعودهم لنا حقيقية فعلاً ..).

في تلك الأثناء، كان وزير النقل محمد حمزة الذي يرافق عزة في زيارة طهران قد طلب من المسؤولين الإيرانيين رسمياً إيداع الطائرات المدنية العراقية لدى إيران في حالة نشوب الحرب، وأجابه المسؤولون الإيرانيون بأنّ رافسنجاني أعطى موافقته على هذا الطلب، غير أنّ أحداً من الجانبين لم يبحث في احتمال نقل طائرات حربية إلى إيران، وكان الأمر مستبعداً، إنْ ذُرَّ أنّ العراق سيكون بأمس الحاجة إلى طائراته إذا اندلع القتال، ولم يكن في بال أحد أن يتم نقلها إلى إيران في ساعات الحرب التي يُفترض أنها أُعدت لها ..



تلقى المدير العام للخطوط الجوية العراقية السيد نور الدين الصافي تعليمات رئاسية في الأسبوع الأخير لإنهاء المهلة التي أعطاهها مجلس الأمن لكي يوزع الطائرات المدنية العراقية وتلك التي جرى الإستيلاء عليها من طائرات الخطوط الكويتية، في مخابئ كانت محصنة في مطار الموصل شمال العراق ومطار المنثى ببغداد .. ونقل ما يمكن نقله إلى الأردن وإيران وموريتانيا وتونس.

و حين أقلعت من مطار بغداد آخر طائرة مدنية عراقية من نوع (جامبو) منتصف ليلية 15-16 كانون الثاني "يناير" 1991 متجهة إلى مدينة نيودلهي لتختتم آخر نشاط للخطوط الجوية العراقية، طلب منها مقر علميات هذه الخطوط في بغداد الإنتقال إلى إيران للإنضمام إلى أربع طائرات مدنية سبقتها إلى هناك.

لكن أحداً لم يكن قد أدخل في حسابه نقل الطائرات العسكرية العراقية إلى إيران حتى مساء الخامس عشر من كانون الثاني "يناير" 1991. كان التبليغ الذي تلقاه أمر القواعد الجوية حتى فجر 16/1/1991 هو تهيئة طائرات النقل العسكرية لتكون جاهزة للإنتقال إلى الجزائر أو تونس أو المغرب. وكانت أولى الطائرات العسكرية التي جرى الإعداد لنقلها إلى دول أخرى هي طائرات النقل روسية الصنع من نوع (اليوشن) وما جرى تحويره منها لتستخدم كطائرات استكشاف للإنذار المبكر مما أُطلق عليه سنة 1989 اسم (عدنان واحد).

في ظهيرة 16/1/1991، وقبل عشر ساعات من بدء الحرب، صدر أمر جديد ومفاجئ من سكرتير رئيس الجمهورية يقضي بنقل الدفعة الأولى من الطائرات إلى إيران وهي ست من نوع (اليوشن 76) ومنها إحدى الطائرتين المحوّرتين للإستكشاف من نوع (عدنان واحد) - قادها الطيار عماد الدين حماد - إلى أحد المطارات الإيرانية، في حين مكثت الأخرى في مطار (الحبانية) حيث دُمرت بفعل الغارات الجوية التي وقعت في الساعات الأربع والعشرين الأولى من الحرب ..



يبقى السؤال .. من ابتدع فكرة الذهاب بالطيران الحربي إلى إيران دون ترتيبات مسبقة .. ؟

لقد تحادث حامد حمادي سكرتير رئيس الجمهورية ذلك اليوم مع محمد حمزة الزبيدي وزير النقل الذي كان قد عاد منذ ثلاثة أيام من زيارة طهران بمعية عزة إبراهيم، وحاول أن يفهم منه تفاصيل الحوار الذي جرى خلال الإتفاق مع الإيرانيين على إيداع الطائرات المدنية في إيران، ثم عاد حمادي لكتابة مذكرة إلى الرئيس يقترح فيها نقل الطائرات الحربية بدءاً من طائرات النقل والإنذار إلى إيران على افتراض أن الإيرانيين قبلوا بمبدأ نقل الطائرات إلى أراضيهم وأنهم أظهروا استعداداً غير مسبوق للتعاون، لكن حمادي لم ينتظر موافقة صدام فأصدر تعليماته (بصفته سكرتير الرئيس) لإفلاق الدفعة الأولى من الطائرات قبل بدء الحرب بعشر ساعات .. ثم توالى تدفق الطائرات من مكائنها في اتجاه إيران طوال الأسبوع الأول من الحرب تأسيساً على وعد إيراني غير واضح ودون أن تكون ثمة ضمانات لإستعادتها .. لا بل للإتفاق على عدد الطائرات التي هبطت في المطارات الإيرانية .. هكذا أتاح الخلل الإداري الهائل في البلاد أن يقرر موظف مدني غير معروف بالكفاءة مصير الطائرات الحربية ليتجرد العراق من جزء فعّال من قدراته ويودعها لدى خصوم الأمس الذين انفق العراق مائة مليار دولار للتسلح ضدهم خلال الثمانينات.



بعد سنة من الحرب، كان بالإمكان تنظيم صفقات تجارية واسعة مع إيران، بعضها متصل بقضايا النفط، حيث كان هناك اتفاق ثلاثي بين الخرطوم وبغداد وطهران، تزود فيه الحكومة العراقية الإيرانيين بنفط مصفى، مقابل أن تزود إيران السودانيين بنفط خام، كما جرى ترتيب زيارات أمنية غير معلنة إلى العاصمتين اشترك فيها رئيس استخبارات الحرس الثوري الإيراني. وتدخل وسطاء إيرانيون مقيمون في سويسرا (من أقارب رئيس الوزراء الأسبق شاهبور بختيار) لترتيب صفقات بيع وشراء بالمقايضة بين الجانبين.

لكن التعامل التجاري والنفطي لم يؤثر في اتجاه ما تعده إيران من ثوابت سياستها مع العراق وأبرزها: إخراج المعارضة الإيرانية من العراق، أو على الأقل

غض النظر عن برنامج سريع لتصفية قادتها في الأراضي العراقية بما يسقط الحرج عن الجانب العراقي ويخلصه من عبء هذه المعارضة، والسماح بقدوم الحجاج الإيرانيين على نطاق واسع لزيارة العتبات المقدسة في (كربلاء) و(النجف) و(سامراء). وعدم البحث في مصير الطائرات العراقية التي نقلت إلى إيران إبان الحرب إلا في إطار التفسير الإيراني للإلتزامات قرار مجلس الأمن (598) لسنة 1987 الذي نظم وقف إطلاق النار في الحرب العراقية الإيرانية.

غير أن شط العرب .. الذي كان موضوع التنازع المزمع على مدى أكثر من نصف قرن من الزمان، فلم يعد من المسائل التي تثير إهتمام الجانبين .. فهو جثة من مياه غير صالحة للملاحة يحتاج فتح مسالكها إلى أموال طائلة ليست في طاقة البلدين، ولذلك ارتضى الجانبان تأجيل البحث في مستقبله، ربما حتى مطلع القرن الحادي والعشرين .. وحينها يمكن أن يعود الشط ثانية ليكون سبباً في تفجير صراع جديد، قد يكون أصغر حجماً وسعة من الصراعات الدامية السابقة .. لكنه سيكون موضوع اشتباك سياسي محتم .. وآخر عسكري محتمل.

أما الإيرانيون فقد انتظروا أقرب موعد قبل انتهاء المهلة التي أعطاهها مجلس الأمن للحكومة العراقية، فأودعوا مصطفى حائري مدير عام دائرة الخليج في الخارجية الإيرانية آنذاك إلى بغداد ليبحث في آليات التنسيق والتعاون ضد الإمبريالية (في حالة وقوع الحرب) ..

وأقترح حائري خلال لقائه مع وزير خارجية العراق ظهر 14/1/1991 أن تسلم الحكومة العراقية قادة المعارضة الإيرانية الموجودين في العراق إلى سلطات طهران مقابل فتح الحدود بين البلدين لتمرير الأغذية والأدوية وقطع الغيار وإطارات السيارات، وقال المسؤول الإيراني :

— إما أن تسلموهم إلينا أو أن تسمحوا لأفراد منا بالقضاء عليهم في العراق.

فرد طارق عزيز : إننا لا نستطيع أن نربط بين هذا وذاك، وحتى الآن لم نطلب منكم تسليمنا منظمات المعارضة العراقية الموجودة لديكم لأننا نعتقد أن قاعدة التسليم غير صحيحة .. لكننا نقترح أن تتعهدوا من ناحيتكم بعدم وقوع أي نشاط معارض ضدنا ضمن حدودكم وستتعهد نحن من ناحيتنا بمنع أي نشاط معاد لكم أيضاً.

وظل هذا الهاجس يشغل الحكومتين، فكل منهما كانت تتربص بالمعارضة الموجودة لدى الآخر، وأتيح للإيرانيين بعد سنوات على انتهاء الحرب أن يقصفوا مواقع مجاهدي خلق القريية من الحدود ويغتالوا عناصرها في قلب بغداد، ويبدو أن الطرفين، على كل ما بينهما من كراهية وعدم ثقة، كانا يستخدمان بعضهما البعض للتلويح للخصوم الآخرين بإمكانية عقد تحالف بين بغداد وطهران، مع أن الأمر لم يبلغ مثل هذا المستوى من التعامل الموثوق بين الجانبين .

لم يخفه صدام حسين شعوره بالمرارة من الإيرانيين وانتهاز أول مرة يزور فيها مدينة عراقية قريبة من الحدود مع إيران بعد بضعة أسابيع على إنتهاء الحرب ليعلن في بلدة (الخالص) يوم 13-5-1991 : لقد خدعنا الإيرانيون.

x حاول الفنيون العراقيون تحوير طائرة "اليوشن 76" روسية الصنع من إستخداماتها لأغراض النقل والتحميل إلى إستخدامات مشابهة لوظائف طائرات الإنذار المبكر الأمريكية والبريطانية، وسعى هؤلاء الفنيون منذ مطلع 1989 لتركيب مجموعة من الرادارات المحمولة وأجهزة الإلتقاط الصوتي والصوتي بعد أن تم إخلاء الطائرة من كل محتوياتها التي تتعلق بالنقل، وجرت تجربة للطيران بها في شهر آب من 1989 غير أن المحاولة فشلت عندما سقطت الطائرة وقضى الفنيون والملاحون الذين كانوا على متنها ، ثم أعيدت المحاولة على طائرة أخرى من نفس النوع وتمكنت من الطيران حيث ألتقط لها شريط تلفزيوني بعث به حسين كامل إلى مكثبي في الإذاعة والتلفزيون طالباً الإعلان عن نجاح التجربة وعرض الشريط، وأدركت أن النزعة الإستعراضية التي تسيطر على صهر الرئيس هي التي تدفعه للإعلان عن نجاح عملية كانت ما تزال في طور التجريب المحفوف بالمخاطر، فطلبت من مساعدي حسين كامل أن يأتوني بأمر من رئيس الجمهورية لكي نذيع الخبر ونعرض الشريط، وتدخل وزير الإعلام في تلك الأثناء فتبني موقف حسين كامل وطلب إعلان الخبر على مسؤوليته، وبعد دقائق من بدء التنويه عن قرب إعلان خبر يتعلق بإنجاز للصناعة العسكرية بدا أن الرئيس الذي كان يراقب التلفزيون قد أخذ بالمفاجأة، فغضب وطلب على الفور التوقف عن التمهيد لإذاعة الخبر حيث لم يكن صهره قد إستأذن منه لإعلان الخبر كما جرت العادة، ومرة أربعون دقيقة من التوتر والترقب فقد انتبه مشاهدو التلفزيون إلى التغيير المفاجئ في البرامج وإلى التوقف عن الإعلان الذي ينوه بإنجاز صناعي عسكري كبير، وحدثت مفاجأة في القصر الجمهوري عندما هرب حسين كامل من غرفة سكرتير الرئيس وتصل عن مسؤوليته في طلب إعلان الخبر. ولم يبق أمام الرئيس غير التعامل مع الأمر الواقع الذي فرضه صهره ، فأوعز بمعاودة لفت الإنتباه للخبر وطلب إطلاق اسم (عدنان 1) على الطائرة في إشارة إلى اسم وزير الدفاع الذي قُتل في حادث طائرة طالما أتهم بتدبيره حسين كامل نفسه.

مع حلول الخامس عشر من كانون الثاني كانت البنية السياسية والعسكرية على وشك التفكك وسط جو عام من البلبلة والحيرة حول الخيارات التي تبقت للبلاد بعد انتهاء المهلة التي أعطاها مجلس الأمن للحكومة العراقية .. ماذا سيفعل الجيش على الأرض .. ؟ وماذا ستفعل الطائرات في السماء .. ؟ وكيف ستكون الحرب هذه المرة .. ؟ .. والأهم من ذلك من سيكون الحليف هذه المرة .. ؟

كانت هناك بلبلة وفوضى حول مسألة استخدام الأسلحة الكيماوية بعد أشهر من التلويح بالجوء إلى هذا السلاح .. لكن الصورة لم تكن واضحة عند المنفذين كما كانت مرتبكة عند المخططين .. نلجأ إلى هذا السلاح .. أم نتحاشى استخدامه .. ولمن نوجه الضربة الأولى .. وماذا سيكون رد الفعل ضدنا ؟ ..

وشهدت قاعدة (البكر) الجوية في منطقة (بلد) شمال شرق بغداد جانباً من تلك الفوضى. فقد جرى يوم 15/1/1991 تحميل خمس عشرة طائرة قاصفة من نوع (سيخوي 24) بقنابل تحمل حشوات كيماوية .. وبقيت الطائرات في حالة إنذار وهي تحت حراسة وحدات من أمن الرئاسة .. ودار همس بين الطيارين بأن هدفهم قد يكون إسرائيل .. لكن أحداً لم يعطهم تعليمات حول مهماتهم المحتملة .. وظلت الطائرات جاثمة فوق الأرض حتى صباح اليوم التالي 16/1/1991 حين تلقت أمرية قاعدة البكر تعليمات جديدة : (انزعوا العتاد الكيماوي من طائرات السيخوي) .. وعاد الطيارون إلى أوكارهم وكأن الحرب لم تكن مقبلة في الساعات التالية ..

لم يكن هناك تفسير واضح لما جرى في تلك القاعدة .. فالأمر يتجاوز كونه مجرد عرض للقوة .. إنزراً أنه تم بكتمان شديد ولم يكن متاحاً تسريب ما جرى خارج القاعدة ليُفسر على أنه جزء من المبالغات التي اتسم بها الأداء السياسي والإعلامي طوال شهور الأزمة .. لكنه يعكس حالة الارتباك في اتخاذ القرارات وتحديد الأهداف.

بعد أربعين ساعة من بدء الحرب انطلقت طائرات (السيخوي) الخمس عشرة جميعها في اتجاه الأجواء الإيرانية ليبحث طياروها عن مطارات إيرانية قريبة من الحدود يستقرون فيها .. ثم ليعودوا وحدهم من غير تلك الطائرات التي قيل هم يوماً إنها ستضرب إسرائيل.